من أجل التحرر الذي سيتوج بالحب ، وعبر الحب الفردي لشكيبه ، تتفجر طاقة الحب الكلية ، لتتشكل على صيغة انتماء ترفع من درجة احساسه بجدارته في الدفاع عن بلدته المهددة · ولهذا فهو عندما يراوده خاطر قتل حارس المنارة يتراجع عن ذلك ، بعد صراع داخلي ينتصر فيه الجانب الخير في ذاته ، انه نموذج ـ لا يحكم في اطار التنميط ـ لشعبنا الخير « ما عشته من الحياة كان دائما على الشاطيء ، وهناك كان قلبي نظيفا مثل الرمل يغسله الموج » (٢١) ·

زكريا شخصية تتفرد في الرواية العربية بغناها الدرامي ، انه لا ينمط قيم وطبائع طبقة ، ولكنه ينمذج كـ (الطروسي) كل الطاقات المهدورة ، يكشفه الكاتب ، يعريه امام ذاته ، ليدفعه الى مزيد من الاكتشاف لذاته من أجل الانتصار عليها ويتجاوزها ، ويدفعنا الى مزيد من اكتشاف الحياة من خلال تكثيفه لاعمق عناصرها الدرامية الثرة ·

ومن خلال استبطانه لجوهر حركتها ، من خلال انغماس كلي في الهم الانساني ·

وتشف الرؤية عبر تراكم زخم الواقع ، وبمقدار ما تغوص هذه الرؤية في طيات الحدث ، تمارس حضورها على نحو اشد بروزا ·

« المرأة والمستقبل هما قضية ادبي ، ويأتي الحب دائما رباطا انسانيا فيه كل الاحترام للمرأة وكل التجلي لانبل الصفات فيها » (٢٢) ·

ومن هنا تتأتى اهمية شكيبة في تفجير كوامن العطاء في ذات المرسنلي وتطهره من نوازع الشرور · كما كانت عليه امرأة القبو (في الشمس في يوم) واهميتها في تطهير عالم الشاب الداخلي ·

ان ـ زكريا ـ الذي يحمل فهما ذكوريا رجعيا عن المرأة « كانت امرأة ، وكنت اظن المرأة بنصف عقل ، او بدون عقل ، بل أقل من لا شيء ، مثل البطيخة ، مثل المجدرة ، اذا جعت اكلت منها والسلام » (٢٣) · ترغمه شكيبة بما فتحت في نفسه من احاسيس كان يغطيها انغلاقه عن شموس الحرية ، اكتشافه لهذه الآفاق الرقيقة الحانية الواثقة ، حولت نظرته للمرأة لتحظى منه باعتبار الانسانة ·

فالمرسنلي الذي يحمل في ذهنه فهما ذكوريا للمرأة ،ورغبة اغتصابية لها ، هذا المفهوم نتاج للشكل اللاانساني للعلاقة بين الرجل والمرأة ، المحكومة بالزواج الاحادي كمؤسسة تقنن الحس الانساني ، وتحجم عواطفه ·

ولذا فقد كان يقرض اذن زوجته صالحة ، ويبعج الوسادة ، في لحظات اغتصاب ينصب فيها كل تراكم العدوانية التي ورثه اياها مجتمع بطريركي قمعي · العلاقة الاغتصابية التفريغية نفسها كان يمارسها مع (ام زخريادس) اليونانية ·

غير ان ـ شكيبة ـ اثبتت للمرسنلي بأن سروالها لا ينزل الا من خلال الالتحام بعلاقة انسانية متكافئة ، يكون المخ الجسدي فيها تعبيرا عن رغبة عميقة لا للارتواء الجنسي فحسب ، بل للارتواء الانساني التكاملي التفاعلي حتى درجة الانصهار · لقد تسامت شكيبة التي ينبجس في انوثتها نبل الطبيعة ، وقانونها الذي يتعالى على سلعية العلاقات التي تواضع عليها الناس في مجتمع الملكية · رغبت بذكورته وسمكه لجوعها، لكنها رفضته عندما شعرت بأن سمكه سيكون مقابلا لجسدها ·

لقد منحته الطبيعة سرها عبر الابتهال لامومتها ففاضت في اعماقه النظيفة معاني